البنيوية: مشروع الحداثة

Structuralism: the project of modernity

د. علي أحمد علي الشارف ـ كلية الآداب والعلوم ـ قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
قصر الأخيار ـ جامعة المرقب

aaesharif@elmergib.edu.ly

الملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على جانب من مظاهر الاستحداث الأدبي والتطبيق العملي لمناهج النقد في ثوب حداثي يخدم ويساير ركب الحضارة في القالب الأدبي اللغوي، الذي لم يكن وليد اللحظة ولكنه امتداد لموروث عربي ولد واكتمل بناؤه عند عبد القاهر الجرجاني في دلائله فيما وسمه بنظرية النظم، التي لم تغفل عن الإجراء البنيوي المستحدث غربيا والمتبع عربيا فيما بعد، القائم على تحليل البنى والعناصر الداخلية للنصوص وتفكيكها إلى عناصر بسيطة، والنظر في العلاقات القائمة بينها، كونها ترى العمل الأدبي كلا واحدا مكونا من عناصر مختلفة متكاملة فيما بينها على أساس مستويات متعددة لا تبتغي نتائج معينة بقدر ما ترى أن لكل نص رؤيته الخاصة وفق وجهة نظر القارئ، ولا تشترط أن تكون هذه الرؤية نابعة من النص نفسه، ممثلة جانبا حداثيا في الإجراء النقدي في الميدان الأدبي.

This study aimed to identify an aspect of literary innovation and the practical application of criticism methods in a modern guise that serves and keeps pace with civilization in the linguistic literary template, which was not a product of the moment but an extension of an Arab heritage that was born and completed by Abdul Qaher al-Jurjani in his evidence for what he called the theory of systems. Which did not ignore the structural procedure developed in the West and followed in the Arab world later, which is based on analyzing the internal structures and elements of texts, decomposing them into simple elements, and examining the existing relationships between them. Because it sees the literary work as a single whole composed of different elements that are integrated with each other on the basis of multiple levels, it does not seek specific results as much as it sees that each text has its own vision according to the reader's point of view, and it does not require that this vision stem from the text itself, representing a modernist aspect in the procedure. Criticism in the literary field

مقدمة:

يَعْتَبِرُ النقادُ الشكلانية إرهاصا للبنيوية التي قامت بإرساء الأدب على أسس الألسنيات من حيث تصورها العلاقة بين اللغة والفكر وعلاقة النص بالمبدع وعمله...، مهتمة باستثمار الحركة الأدبية والقضاء على المناهج النقدية القديمة، مستحدثة عامل النسبية في تقدير الظواهر، والتخلي نهائيا عن ناموس الإطلاق الذي قيد العلم اللغوي

تاريخا طويلا، ومدخلها في هذا التغيير عند تحليلها للغة هو التمييز بين الزمن الطبيعي والزمن التقديري، وصولا إلى جوهر الفكرة البنيوية، فالزمن الطبيعي هو البعد الموضوعي لتوالي الأحداث والأجزاء الكلامية المعبرة عن تلك الأحداث، وأما الزمن التقديري فيتمثل في موقف افتراضي يقوم على القيمة الاعتبارية للأشياء كما تعبر عنه اللغة، وهذا هو المعين الذي تستمد البنيوية سطوتها المنهجية منه، سندت كل ذلك إلى الاستجابة لمتطلبات الحياة الحديثة.

من المسلم به أن ينتج عن حركة التطور النقدي والأدبي الحديث وجود قضايا جديدة ومسميات مواكبة و واسمة لها تستوقف أهل المجال لفهمها وتطبيقها والحكم عليها، انطلاقا من مبدأ أن الحكم على الشئ فرع من تصوره، انصافا لجميع الآراء: القديم بثوابته والجديد بحلته ومن ذلك: البنيوية، التي تعنى بتحديد وظائف عناصر النص: كالألفاظ والتراكيب وما يلحقها من المتضادات والمقابلات والموازنات...، وهذا مثبت في بواكير الآراء النقدية العربية عند القدامى استنادا إلى أن ميدانها الأول هو اللغة التي حذقها الأوائل وألموا بكل متعلقاتها.

هذا الطرح يقودنا إلى التساؤل الذي يمثل **فرضية البحث** وهو: ما الذي استجد وتم استحداثه مع هذه النظرية "البنيوية"؟

وللإجابة عن التساؤل السابق نتتبع في هذا البحث مجريات المنهج النقدي البنيوي بدءا بالمفهوم النقدي وصولا إلى البعد الفني، موظفا المنهج الوصفي في سرد البحث للوصول إلى نتائج علمية.

وتكمن **أهمية البحث** في بيان علاقة البنيوية كمنهج نقدي بالتطور التاريخي في أن البنيويين يهاجمون وبعنفٍ المناهج التي تعنى بدراسة إطار الأدب ومحيطه وأسبابه الخارجية، ويتهمونها بأنها تقع في شرك الشرح والتعليل، كونها تصف الأثر الأدبي بالذات حين تلح على وصف العوامل الخارجية وكأنها تحاكم التاريخ، على اعتبار أن الأثر الأدبي: مقال أو خطاب أو حديث يخضع لمعايير التحليل البنيوية التي تتجاهل جميع متعلقات النص في محاولة لاكتشاف لغة ثانية تختلف عن اللغة الأولى للنص، أي: اشتقاق أو توليد معنى معين اشتقاقا من الشكل الذي هو الأثر الأدبي نفسه.

علما بأن هذه الدراسة امتداد لدراسات سابقة زاوجت بينها وأفادت بما حوت في مضمونها ما خلصت له في محتوى هذه الدراسة من أمثال:

- البنيوية والتفكيك (تطورات النقد الأدبي)، س.ر افيندراند، ترجمة: خالدة حامد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2000م
- عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، ترجمة: جابر عصفور، آفاق عربية، بغداد، 1985م.

* البنيوية ـ فلسفة موت الإنسان ـ ، روجيه غارودي، ترجمة: جورج طرابيشي، ط3، دار الطليعة، بيروت، 1985م.

* المنهج البنيوي، الزواوي بغورة، دار الهدى، عين امليلة، ط1، 2001م.

وقبل الشروع في الحديث عن المنهج البنيوي كتيار فكري ومنهج نقدي لابد لنا من تحديد مفهوم مصطلح البنية لغة واصطلاحا.

أولا: الدلالة اللغوية لكلمة البنية:

"(بنية) كلمة مشتقة من الفعل الثلاثي (بنى) وتعني البناء أو الطريقة، وكذلك تدل على معنى التشييد والعمارة والكيفية التي يكون عليها البناء، أو الكيفية التي شيد عليها"[1] (ابن منظور، لسان العرب، مج 9، مادة بنى)

انطلاق من المسلمة التي مفادها: أن كل زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، فكل تحول في البنية يؤدي إلى تحول في الدلالة، وهذا مسعى البنيوية كمنهج، والبنية موضوع منتظم له صورته الخاصة ووحدته الذاتية؛ حتى إن كلمة (بنية) في أصلها تحمل معنى المجموع والكل المؤلف من ظواهر متماسكة، مؤكدة أسبقية العلاقة على الكينونة وأولوية الكل على الجزء ويتوقف كل منها على ما سواه، ويتحدد من خلال علاقته بما عداه.

المفهوم الاصطلاحي للبنيوية:

البنيوية جزء من حلقة المفاهيم المستحدثة، واجهت في دربها تحديا عسيرا قبل أن تتجه نحو بَرٍّ آمِنٍ في تحديد المصطلح، كل ذلك راجع إلى عدم استقرار الآراء حولها من حيث أصل ودوافع وأسباب النشأة وهدفها الذي تبتغيه، ومجال عملها الذي تقوم عليه واختصاصها.

"إن إعطاء تعريف موحد للبنيوية رهين بالتميز بين الفكرة المثالية الإيجابية التي تغطي مفهوم البنية في الصراعات أو في آفاق مختلفة أنواع البنيات، والنوايا النقدية التي رافقت نشوء وتطور كل واحدة منها مقابل التيارات القائمة في مختلف التعاليم" (أحمد رحماني، نظريات نقدية وتطبيقاتها، ص16)

إن ما حققه المنهج البنيوي من تراكمات بحثية جعلت منه مادة للمراجعة والنقد كونه اتخذ من عدة علوم غير الأدب مسلكا له، ثم انحسر هذا المسلك في الأدب ثم انحصر في مجال الدراسة اللغوية بحسب ما أقر بذلك أنصاره ـ وهو مدار هذه الدراسة التي يلزمنا في مستهلها من الوقوف على كنهه ومفهومه ـ

وفيما يلي نستعرض عدّة آراء حول تحديد مفهوم البنيوية بين العلماء:

1ـ البنية التي هي جذر البنيوية يعرفها: جان بياجه ـ باعتبارها نسقا من التحولات ـ : "يحتوي على قوانينه الخاصة، علما بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به هذه التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق أو أن تستعين بعناصر خارجية، وبإيجاز: فالبنية تتألف من ثلاث خصائص هي: الكلية والتحولات والضبط الذاتي" (أحمد رحماني، نظريات نقدية وتطبيقاتها، ص 16)

ففي التعريف تتجلى سمة التفريق بين ما تستهجنه البنيوية كمنهج وما تهدف إليه أثناء التطبيق، إذ يتضح الهدف الواحد لمختلف فروع المعرفة في تحديد البنية باعتبارها سعيا وراء تحقيق معقولية كامنة عن طريق تكوين بناءات مكتفية بنفسها لا تحتاج من أجل بلوغها إلى العناصر الخارجية.

ويرى (ليفي شتراوس) أن: "البنية مجرد طريقة أو منهج يمكن تطبيقها في أي نوع من الدراسات، تماما كما هي بالنسبة للتحليل البنيوي المستخدم في الدراسات والعلوم الأخرى" (زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص29).

ومما سبق يبرز اشتراك كل الظواهر المختلفة من حولنا في شيء يجمع بينها وهو تلك العلاقات الثابتة الخاضعة للتجريب، لهذا السبب لزم تبسيط هذه الحوادث والظواهر من خلال إدراك العلاقات؛ لأن هذه العلاقات أيسر فهما من الأشياء نفسها في تعقيدها وتشتتها.

ويرى (ليونارد جاكسون) أن البنيوية: "هي القيام بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات والعقول واللغات والأساطير، بوصف كل منها نظاما تاما أو كلا مترابطا، أي: بوصفها بنيات، فتتم دراستها من حيث أنساق ترابطها الداخلية لا من حيث هي مجموعات من الوحدات أو العناصر المنعزلة ولا من حيث تعاقبها التاريخي" (زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص 29).

فالتعريفات السابقة تقودنا إلى العلاقة بين الجزء والكل في نظر البنيويين، فهم يرون أن العلاقة بين الجزء والكل ليست مجرد اجتماع مجموعة من العناصر المستقلة، حيث تنظر إلى كل مشتت متنوع لتعود به إلى دائرة المجموع المنتظم، وإن هذه العناصر تخضع لقوانين تتحكم في بناء العلاقة التي تجمع الأجزاء بعد أن تلاحظ ما فيها من ثوابت ومشتركات، وتضفي هذه القوانين على البنية سمات كلية تختلف عن سمات العناصر كل منها على حده، كما تتميز عن مجموع هذه العناصر.

هذا بالنظر إلى آراء الغربيين، أما في أدبنا العربي الحديث فإننا نجد الاهتمام ليس باليسير في هذا المجال، إذ كان النقاد العرب شأنهم شأن النقاد البنيويين الغربيين، "يعدون النص بنية مغلقة على ذاتها، ولا يسمحون بتغير يقع خارج علاقاته ونظامه الداخلي" (زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص34)

يعرف عبد السلام المسدي البنيوية بأنها: "المنهج الذي تلج من خلاله إلى بنية النص الدلالية من خلال بنيته التركيبية" (صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص24)

ويرى جميل حمداوي البنيوية من منظور أنها: "طريقة وصفية في قراءة النص الأدبي تستند إلى خطوتين أساسيتين هما: التفكيك والتركيب، كما أنها لا تهتم بالمضمون المباشر؛ بل تركز على شكل المضمون وعناصره وبناه التي تشكل نسقية النص في اختلافاته وتآلفاته" (صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص25)، أي: إعادة إنتاج النص وفق ضوابط البنيوية.

يمكن أن نجمل القول للوصول إلى تعريف جامع مانع لمفهوم البنيوية حين نصفها في مجال النقد الأدبي بأنها ثمرة من ثمرات التفكير الألسني وآثاره في العلوم الإنسانية المختلفة، فهي تعنى بدراسة النصوص الأدبية من داخلها، أي: تبدأ من النص وتنتهي به...، وفي هذا المقام نود أن نشير إلى أن البنيوية كانت في أول ظهورها تهتم بجميع نواحي المعرفة الإنسانية ثم تبلورت في ميدان البحث اللغوي والنقد الأدبي مسايرة ركب الحداثة في إيجاد مسلك خاص بها تتمايز به عن غيرها.

أصول البنيوية (النشأة والتطور):

إن التغييرات التي شهدتها الحياة في مختلف الميادين العلمية بنواحيها المختلفة استوجبت البحث عن وسائل تعبيرية حديثة ونادرة على تصوير إنسان العصر في تفاعله مع محيطه المعقد وواقعه الجديد.

إن الظروف الحياتية على جميع المستويات جعل من الأشكال الأدبية لفهم وتفسير النصوص القديمة عاجزة على استيعاب ومتابعة تلك الأعمال بالوصف والنقد والتحليل، فكان لزاما البحث عن وسائل تعبيرية حديثة تواكب عن كثب كل المستجدات، فبرزت من خلال التقاء نظريتي البنيوية والشكلانية ـ باعتبار أن الشكلانية إنما هي

امتداد البدايات البنيوية اللتان قامتا بإرساء الأدب على أسس الألسنيات ـ قدرة الأدب على لعب أدوار رئيسية في تحليل النصوص.

يعد رومان جاكبسون أب عذرية البنيوية كمصلح واسم ومنهج عامل حين أقرها كعنوان جامع لوصف الأعمال النظرية لحلقة براغ اللغوية، وإن البنيوية عصارة جهود ألسنية سابقة يترأسها جهود المدرسة السويسرية التي يطلق عليها حلقة جنيف بزعامة اللغوي فرديناند دو سوسير عبر محاضراته بجامعة جنيف والتي نسبت لها.

ولدت البنيوية في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين على يد رائدها: فرديناند دي سوسير، من خلال كتابه: محاضرات في اللسانيات العامة، الذي نشر في باريس عام 1916م، إذ كان يهدف منه إلى التعامل مع النص الأدبي من الداخل وتجاوز الخارج، واعتباره نسقا لغويا في سكونه وثباته، فأصبح بذلك ـ المنهج البنيوي ـ أقرب المناهج إلى الأدب؛ لأنه يجمع بين الإبداع واللغة.

ظهرت البنيوية أول الأمر في علم اللغة؛ لأن دي سوسير عندما طبق المنهج البنيوي في دراسته للغة اكتشف مفهوم البنية في علم اللغة، الأمر الذي دفع بقرنائه في هذا المجال من أمثال: بارت وتودوروف وغيرهما إلى الكشف عن عناصر النظام في الأدب، وبخاصة في تصور العلاقة بين اللغة والفكر وعلاقة النص بالمبدع وقصيدته ـ عمله الأدبي ـ والنظر إلى النص بوصفه علاقات لغوية مجردة من أية دلالة مرجعية خارج النص، فالبنيويون لا يعترفون بأي بُعْدٍ للعمل الأدبي سواءٌ أكان ذاتيا أو اجتماعيا أو تاريخيا أو تطوريا...

" ومن هنا انطلقت البنيوية من حقل علم اللغة إلى حقل علم الأدب، فدي سوسير في نظريته كان يفرق بين اللغة والأقوال ـ حيث قال بأن اللغة ليست محددة المعاني، ولكنها مجموعة علاقات ـ أو بين اللغة كنظام واللغة كاستعمال كلاما أو كتابة، فإن البنيويين يفرقون كذلك في علم الأدب بين الأدب والأعمال الأدبية " (ك. م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ص99)

فاللغة هي الرحم الأولى لنشأة المعيار البنيوي، فبالتالي تُعَدُّ اللغة المعين الذي تستمد منه سطوتها المنهجية.

إننا نلحظ إقرارا مما سبق سرده بأن البنيوية ولدت من رحم الاستجابة لمتطلبات الحياة الحديثة، إنه في المقابل لذلك يستوقفنا رأي بعض النقاد العرب الذي يرد أصول البنيوية ـ نشأة ـ إلى عبد القاهر الجرجاني في نظريته ـ النظم ـ" التي أقر فيها بأن اللفظة وحدها ليست المقصودة في إحداث النظم والتأليف؛ بل بالنظر في اللفظة مع جاراتها وبين الألفاظ والمعاني" (ينظر: أحمد رحماني، نظريات نظرية وتطبيقاتها، ص18)

ومن مبدأ أن العلوم تتلاقح والأفكار تتوالد ـ الأمر الذي لم تخرج عن إطاره الفكرة البنيوية ـ فإن البنيوية في أصولها إنما هي محاولة لتطبيق منهج علم اللغة على الأدب ونقده، وهي تتخذ من الشكلانية الرافد الأكبر والأساس الأمتن لانبثاقها، فالمدرسة الشكلانية الروسية ـ التي ظهرت في الربع الأول من القرن العشرين ـ أو ما عرف في أمريكا بمدرسة النقد الجديد إنما هي إرهاصات لظهور البنيوية، فالشكلانية الروسية نادت بضرورة التركيز على العلاقات الداخلية للنص، ومن ذلك النداء برز مفهومها للأدب بأنه صورة رمزية للواقع وليس انعكاسا له بأي حال، فتدرس النص بمنعزل عن سياقه التاريخي والجغرافي والاجتماعي وعزلته عن الأديب أو الكاتب نفسه ـ موت المؤلف كما نادى بذلك: بارث، أو كما سماه فوكو: إزاحة الإنسان. (ينظر: ك. م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ص91)

ومن النقاد من يرى أن الفروض والمعطيات التي أبرزتها الشكلانية جاءت لتطورها البنيوية وتؤكد صحتها نظريا وتطبيقيا، كما تبرز علاقة البنيوية بمدرسة النقد الجديد من خلال آراء أعلامها في الأدب من أمثال (ينظر: ك. م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ص91- 93.): (عزرا باوند) الذي يري أن الشاعر كالعالم والشعر ما هو إلا نوع من الرياضيات الفنية، أما (هيوم) فقد رفض ما يسمى بالموضوع الشعري وطالب بالتركيز على القالب الشعري، أما (جون كروانوم) فذهب إلى أن هدف الشعر هو الشعر نفسه، وإذا استحق دراسته فلأنه شعر قبل أي شيء، فالشاعر والناقد في هذه المدرسة يبدءان بالنص وينتهيان به، أي: التركيز التام على البنية اللغوية بتجريدها من علاقاتها بجمل حياة البشر كما يقول بارث.

إن الآراء السابقة تقودنا إلى التأكيد على أن البنيوية كمنهج ـ أصلا وأثرا ـ لست طفرة مفهومية ولا بذرة من عدم، لكنها تمثل امتدادا لعدة مفاهيم وتطبيقاتها في مناحٍ معرفية متنوعة ومختلفة بلاغية ونقدية وأدبية وإحصائية... تطبيقية ونظرية، مستمدة ـ مما أشرنا له سالفا ـ من فكرة عبد القاهر الجرجاني حين سلب اللفظة المفردة من مزيتها الذاتية وأسند تمام جمالها وقمة دورها وفعاليتها في حسن انتظامها التركيبي والمعنوي، وهو ذات النظام الذي تصوره دي سوسير حين شبه نظام اللغة بلعبة الشطرنج، التي لا قيمة لقطعة الشطرنج في ذاتها، إنما قيمتها مرتبطة بموقعها على الرقعة.

ففي ظاهر الأمر توافق الأصول والاستعمال بتوافق المسمى: النسق الدي سوسيري والنظم الجرجاني.

ولكن الاتجاه البنيوي همه توجيه الأنظار إلى زاوية ضيقة متمثلة في هيكل الشيء أي: بنائه دون غيره، قوام لبناته دون أي صلة أو علاقة بغيرها من الظروف المؤثرة في إنتاجه أو مقاصده....

النقد والتحليل عند البنيويين:

ذهبت البنيوية إلى استثمار الحركة الأدبية والقضاء على المناهج النقدية القديمة، ولكنها ليست العصى السحرية التي تستطيع أن تغير الموقف الأدبي النقدي وتقلبه رأسا على عقب في رمشة عين، ولكنها موقف فكري لا يختلف عن سواه من الأفكار العلمية في الفرضية وبناء النظرية.

لقد أخذ النقد البنيوي طابع التحليل دربا له وليس التقييم، إذ لم تحصر ذاتها كمنهج بحثي خاص بالأدب والنقد فقط، ولكنها منهج عام يُطبق في شتى تخصصات علمية، وأن الرابط بين هذه العلوم في نظر البنيوية هو احتوائها على عناصر ذات علاقات يتم اكتشافها عن طريق الدراسة القائمة على الملاحظة والتحليل والوصف وصولا إلى إمكانية جعل عناصرها كلاً متكاملا.

وفي مجال الدرس الأدبي هذا يعنى المنهج البنيوي بأن يحلل البنى والعناصر الداخلية ويفككها إلى عناصر بسيطة، وينظر في العلاقات القائمة بينها، فهو يهدف إلى بيان كيفية تركيب العمل الأدبي، حيث إن الكلمة لا يتحدد معناها إلا بعلاقتها مع مجموع من الكلمات سابقة ولاحقة لها، وهذا يعني أن النقد البنيوي يعد العمل الأدبي كلا واحدا مكونا من عناصر مختلفة متكاملة فيما بينها على أساس مستويات متعددة، حتى إن دي سو سير يقول بتعسفية العلاقة بين الكلمة وصوتها مستدلا على ذلك باختلاف صوت ذات الشئ بين لغة وأخرى، ومن هنا كان الإقرار بأن بناء اللغة ونظامها لا يتمثل إلا في العلاقات بين الكلمات، فهو لا يعتمد على الناقد بقدر ما يعتمد على الوصف، ولا يخلص لنتائج معينة، فكل نص له رؤية، فإذا استطاع الناقد رصد تلك الرؤية عندها يستطيع تحليل جزئيات البنية الأدبية للعمل الأدبي، مؤكدة فلسفتها اللا إنسانية (ينظر: روجيه غارودي، البنيوية ـ فلسفة موت الإنسان،

ص116- 117) كما رآها الفرنسي: روجيه غارودي الذي اعتبر الإنسان مجرد قاره قوز تحركه حبال البنى على خشبة المسرح ـ

المتتبع للتحليل النقدي البنيوي يلتمس منه أنه يسعى وراء إنتاج نص جديد وفق رؤية القارئ، ولكنه يشترط عليه أن تكون تلك الرؤية نابعة من النص نفسه، فالنقد البنيوي يعطي النص سلطة لا أن يسير وفق سلطة لاستمراريته في التجدد واتخاذه أشكالا متعددة وصولا إلى قاسم مشترك موحد، وهذا عندما نادى بدراسة النص ومحاورته من الداخل، فالنص عندما يصبح مقروءا يعني أنه يمتلك سلطة تجعله موضوع قراءة، حيث حدد المنهج البنيوي مرجعيته التي يستمد منها سلطته، وهي مرجعية أدبية أساسها اللغة، بانتظامها ومدلولاتها على مستوى أنساق العلاقات داخل بنية النص.

إن النظرة العامة ـ من وجهة نظري ـ للتحليل البنيوي تخلص إلى أن: النقد البنيوي يقف عاجزا أمام التفريق بين الأعمال الأدبية الجيدة والرديئة، القديمة والجديدة، والسبب يرجع إلى أنه تحليل وصفي صوري ـ شكلي ـ لا يهتم بالقيمة، وهذا بدوره يعمل على تشويه الأعمال الأدبية وإلغاء خصوصيتها، انطلاقا من تقاطع مفهومها مع المفهوم الماركسي للإنسان الذي يلغي الفرادة ويقتل الإنسان، وبالتالي فالبنيوية تُغَيِّب الخصوصية الفنية للنص الواحد في فرادته وتميزه؛ لأن التصور البنيوي يحول النص إلى جملة كبيرة ثم يتجه نحو تجزئته إلى أصغر مكوناته وتُفَسِّر كل تجزأة تفسيرا نسقيا وصفيا مستعينة بالإجراءات المتبعة في العلوم التطبيقية من إحصاءات ورسومات تحليلية وبيانية...

وتعليل السرد السابق لمعطيات البنيوية " أن وظيفة النقد البنيوي تنحصر في قضية التذوق والفهم، وفي هذا المضمار فالبنيوية تعد عاجزة حتى عن أداء هذه المهمة ـ وفق الرؤية السابقة ـ لسبب بسيط وهو أنها ترفض التعليل؛ بل تعده شركا، ومن الطبيعي ألا ينتج أي نوع من الفهم بدون تعليل لأي ظاهرة أدبية أو غير أدبية" (ك. م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ص101- 102).

فهي ذات جانب فلسفي يميل للشمولية واضحة الملامح، فلم تتشرب فكرة دقة التخصص الغالب في نهج الحداثة، وقد أشار الدكتور عبد الحميد الهرامة(د. عبد الحميد الهرامة محاضرة بعنوان: قضايا النقد الأدبي الحديث) إلى أن التطبيق الخاطئ لهذه النظرية يقود إلى مزالق تجعلها كثيرة المحاذير، وقد ضرب لذلك مثالا حين ذكر زيارته كلية الآداب بالرباط في ثمانيات القرن الماضي ولقائه صديقه: د. علال غازي ـ رحمه الله ـ المولع بتوجيه طلابه لتطبيق هذه النظرية ـ كما وصفها ـ في أبحاثهم، وبعد اطلاعه على نموذج منها متمثلا في تحليل قصيدة أبي العلاء المعري التي يقول في مطلعها:

تعبٌ كلها الحياة فما أعجبُ إلا من راغب في ازدياد

وذكر أن الطالب وضع جدولا للكلمات الإيجابية والسلبية في البيت متمثلة في الآتي: كلمات في الجانب الإيجابي: (كلها، الحياة، أعجب، راغب، ازدياد)، وفي الجانب السلبي وضع: (تعب)، وعلق: بأن البيت يوحي بالإيجابية، والواقع أن البيت كله سلبي، وعلق الدكتور غازي علال بقوله: (هذا من المآخذ على هذه النظرية)، وأكمل الدكتور الهرامة بقوله: وهذا لا يجعلنا نتجاهل ما يمكن أن تقدمه لنا هذه النظرية من فوائد إذا أمعنا النظر في العلاقات ذات الجدوى، وبنينا عليها أحكاما لا تناقض المنطق.

أعلام المنهج البنيوي (ينظر: روبرت شولز، البنيوية في الأدب، ص 46 وما بعدها)

انطلاقا من الخطوط الأولى لظهور البنيوية التي تؤكد على أن الرافد التاريخي للبنيوية هو المدرسة الشكلانية الروسية أو ما عرف بمدرسة النقد الجديد في أمريكيا، قد أوجد تباينا في التوجه في تمييز الأدب بينهما، فالشكلانية تفصل بين الشكل والمضمون، معتبرة الشكل مناط الفهم وأما المضمون عندها فهو خالٍ من القيمة الدالة، وهذا مخالف لما رآه أنصار المنهج البنيوي حين أقروا بأهمية البنية وأنها لا تبتر الواقع؛ بل تتيح المجال لإدراكه بشتى نواحيه ومظاهره.

من هذا المنطلق وقفنا عند عينة من أعلام المنهج البنيوي نستقرأ توجهاتهم وآرائهم النقدية، ومنهم الآتي:

1- فرديناند دي سوسير:

اللغة عند دي سو سير هي نظام من الإشارات التي تعبر عن اللغة، وإن العلاقة بين تلك الإشارات ومدلولاتها علاقة اعتباطية، بدليل اختلاف الإشارة، وهذا ما قاده إلى تأسيس علم السيمولوجيا.

فهو يدعو إلى تحليل البنية (النظام) وكشف عناصرها كالرموز والصور والموسيقى في نسيج العلاقات اللغوية أي: في أنساقها؛ لمعرفة ملابسات بنيتها من الداخل والخارج، فيريد البحث عن مجموعة العناصر وعلاقاتها المتشابكة داخل هذا النظام.

ولكن كان اهتمام دي سو سير في معالجته لمكونات العملية الإبداعية الكلامية باللغة دون الكلام؛ لأن الكلام في رأيه فعل فردي لا يمثل سوى بداية اللسان أو الجزء الفيزيائي وهو مستوى خارج الواقعة الاجتماعية.

ولعل من إسهامات دي سو سير المهمة بأنه بين ثلاثة مستويات للغة، أولا: اللغة كنظام، ثانيا: اللغة كصياغة، ثالثا: اللغة كمنطق.

بعد كل ما سبق ذكره نشير إلى أن دي سو سير ـ الأب الروحي للبنيوية ـ لم يكن منكرا لقيمة الدراسة التاريخية، ولكنه رأى أن الدراسة التاريخية للظواهر اللغوية يجب أن تأتي تابعة لدراسة اللغة كنظام مستقل بفترة زمنية معينة وجماعة بشرية معينة، فمعرفة النظام يجب منطقيا أن تسبق معرفة التغيرات التي تطرأ عليه.

وهكذا نجد تأثير إسهامات دي سو سير العالم اللغوي من خلال كتابه: دروس في علم اللغة، في تطور النظرية البنائية فيما بعد.

2- رومان جاكبسون:

تنطلق مقولاته من أن الأدب في مقامه الأول لغة، وأن البنيوية منهج يتخذ من علم اللغة أساسا له؛ لذلك يعمد إلى تطوير ثنائيات: التأليف والاختيار، وينصب عمله بشدة في البحث عن تحقق الوظيفة الشعرية في اللغة داخل الأدب.

ولا ننس بأنه هو واضع علم الأصوات وهو تابع لعلم اللغة، وذلك العلم الذي أضاف إلى علم اللغة البنيوي أبحاثا جديدة، حيث قالوا بأن علم الأصوات يؤكد نفس النظرية البنيوية من أن النسق الصوتي ليس مجموع من العناصر، ولكن ما يوجد بينها من علاقات.

3- فلاديمير بروب:

يعد (بروب) من الشكلانيين الذين بشروا ومهدوا الطريق للحركة البنائية في النقد، لقد درس بروب محاولات تبويب القصص الخرافي ووجد أن معظم التبويبات التي سبقته قد انصبت على الموضوعات والعناصر بناء على دراسة مستفيضة لمائة قصة روسية، ووجد أن الوظائف التي تقوم بها الشخصيات ثابتة بينما تتغير الشخصيات فقط، وهذا ما قاده إلى تعريف الوظيفة قبل بدئه بدراسة الوظيفة في القصص، ووضع قوانين بنية الحكاية.

4- كلود ليفي شتراوس:

ومن أهم إسهاماته أنه نشر كتابه (الأبنية الأولية للقرابة) في باريس سنة 1984م، الذي وجه جل درس فيه عن علاقات المحارم التي افتتحت عصر البنائية، حيث حدد أن الهدف من دراسته هذه هو ليس معرفة المجتمعات نفسها، وإنما اكتشاف كيفية اختلافها عن بعضها البعض، فمحورها إذن هو مثل علم اللغة هو القيم الأخلاقية.

وقد كانت مساهمة شتراوس المهمة في الدراسات اللاحقة تتمثل في نظريته التي تقوم على أساس أن بناء الكون يتمثل في مجموعة من الثنائيات التي تبدو متعارضة ولكنها متكاملة في الوقت ذاته، إذ لا يمكن أن يتم هذا التكامل إلا من خلال هذا التناقض والحياة المبنية على أساس من هذا التكامل.

ومن هذه الرؤية ينطلق التحليل البنائي في تفتيت العمل الأدبي وتحليله إلى تلك الثنائيات مثل: (الموت والحياة، والنقص والكمال، والهرم والشباب، والنور والظلام)، وإلى موقف الإنسان من هذه الثنائيات وصراعه معها.

ويرى كلود ليفي شتراوس أن المنهج البنائي يقوم على تعيين أشكال ثابتة في صلب مضامين مختلفة، أما التحليل البنائي فهو يقوم على البحث عن مضامين متواترة خلف أشكال متبدلة، إذن فهو يفرق بين المنهج وتحليله.

مستويات النقد البنيوي: (زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص53)

ابتعد النقد البنيوي عن أحكام القيمة على العمل الأدبي واكتفى بالوصف حين وقف عند حدود اكتشاف نظام النص ـ بنيته الأساسية ـ متجاهلا كل ما له علاقة بالجانب الإبداعي للغة والباث، حاصرا وظيفته في قضية التذوق والفهم، فهو بالتالي منهج لا يسمح باستنباط مبادئ نقدية يمكن تطبيقها على أعمال أخرى، كونه منهج وصفي صوري قائم على مبدأ المثولية لعزلة النصوص عن جميع المؤثرات...، وبالتالي فالبنيوية تصل التقسيمات النقدية فيها إلى نقاط هي مجمل ما توقف عنده نقاد المنهج متمثلا في الآتي:

أولا: المستوى الصوتي، وتدرس فيه الحروف ورمزيتها وتكويناتها الموسيقية من نبر وتنغيم وإيقاع، ويتم معرفته من خلال الصوتيات.

ثانيا: المستوى الصرفي: وتدرس فيه الوحدات الصرفية ووظيفتها في التكوين اللغوي والأدبي خاصة، وهذا المستوى يحتاج إلى كل ما يبنى عليه علم الصرف.

ثالثا: المستوى المعجمي: وتدرس فيه الكلمات لمعرفة خصائصها الحسية والتجريدية والحيوية والمستوى الأسلوبي لها، بمعنى أنه يبحث في دلالة الكلمات اللغوية.

رابعا: المستوى النحوي: وتدرس فيه تأليف وتركيب الجمل وطرق تكوينها وخصائصها الدلالية والجمالية، بمعنى أنه يبحث في بناء الجملة سواء أكانت فعلية أو اسمية أو شبه جملة.

خامسا: مستوى القول: وذلك لتحليل تراكيب الجمل الكبرى؛ لمعرفة خصائصها الأساسية والثانوية.

سادسا: المستوى الدلالي: وهذا يشغل بتحليل المعاني المباشرة وغير المباشرة والصورة المتصلة بالأنظمة الخارجية عن حدود اللغة والتي ترتبط بعلوم النفس والاجتماع وتمارس وظيفتها على درجات في الأدب والشعر.

سابعا: المستوى الرمزي: وتقوم فيه المستويات السابقة بدور الدال الجديد الذي ينتج مدلولا أدبيا جديدا يقود بدوره إلى المعنى الثاني أو ما يسمى باللغة (داخل اللغة).

إن الناظر إلى هذه المستويات يجدها كلها تتصل باللغة، فالمحلل البنيوي يقوم بدراسة جميع هذه المستويات في نفسها أولا، وعلاقتها المتبادلة وتوافقاتها والتداعي الحر فيما بينها والأنشطة المتمثلة فيها، وثانيا هو ما يحدد نهاية الأمر البنية الأدبية المتكاملة.

نستشف من التتبع الفائت أن كل المستويات للمنهج البنيوي النقدي تمثل آراء واجتهادات البنيويين أنهم رافعين من شأن النص ورموزه وعلاقاته ومقللين من أثر الذات (الباثة والمتلقية)، تلك الآراء التي قد تقترب من الصواب أو تجانبه إنما تمثل الدرب الذي انتقاه وارتضاه الناقد البنيوي لدراسة النصوص لرسم أعراف القراءة الجديدة بعيدا عن قصدية الأديب ومزيحة التفسير عن طريق الوصف النظري وكذلك استحداث سبل جديدة لدراسة فكرة المعنى لبلوغ نوع أعلى من الموضوعية.

انزلاقات المنهج البنيوي:

عندما هجر دي سو سير الدراسة اللغوية التاريخية فيما عرف بالنحو المقارن ومال إلى الوصف اللغوي الآني وصولا إلى النتيجة النهائية للتنظير الشكلاني في صورة المنهج البنيوي وصل به الحال إلى الانزلاقات التالية:

1- بالوقوف عند المفهوم والدلالة اللذان يحملهما مصطلح البنيوية تتراءى جليا في السياق الأدبي الاعتماد على بنية النص، موضحة العلائق الرابطة بين الكيانين: اللفظي والمادي للنص، فإنها تتحاشى إقرار الوحدة الموضوعية ودوافع الإبداع النصي وأثر المبدع فيه.

2- البنيوية تميت الروح بإماتتها الإنسان، فلا تداعب المشاعر ولا تحاكي المواقف، فبالتالي لا تعد علما ولكنها تعد شبيهة بعلم لاستخدامها لغة ومفردات وجداول إحصائية وتعدادية... متشابكة، ورسوما بيانية ...، ضاربة بالتاريخ عرض الحائط، متجاهلة الأحداث التاريخية التي هي مرحلة مرت بها إلى الرحم الوالدة للنص.

3- جنوح البنيوية إلى الألسنية الصرفة في نظرها يقود حتما إلى إلغاء خصائص الأدب والفن، ومن هنا عرف رولان بارث البنيوية بأنها جسد لغوي أو مجموعة من الجمل، كون هذا الجسد مقطوع ومستقل عن موضوع القراءة، لاتكائها على العقلانية بعيدا عن مركز الشعور، فالحجر مادة التمثال ومجسم التمثال ليس مجرد حجر.

4- تسعى البنيوية إلى سكونية التاريخ، ملغية التطور مهتمة بالنظام الهيكلي، فهي ترى أن العوامل المحركة لعجلة التاريخ بأنظمتها وتعالقاتها تعجز عن مواكبتها وتغييرها وتشكيلها الإرادة الإنسانية.

أخيرا وليس آخرا، وبعيدا عن الانحياز أو التعصب أو استجادة الغث أو استغاثة الجيد وبعد العرض السابق لمشتملات حول المنهج البنيوي وانزلاقاته نجد أنفسنا أمام طريق رسمته البنيوية يصلح كمنهج يسير للاتباع والاستخدام ضمن نتائج مستمدة من مضمون وصلب البحث متمثلة في النقاط التالية:

- تسعى البنيوية كمسلك نقدي إلى معاينة عميقة للنصوص، لشمولية نظرتها للشعر كونه نتاج إنساني تجاوز شرط الزمان والمكان والفرد واللغة، إذ تنصرف إلى الكيفية التي تنتظم بها عناصر البناء دون الاهتمام

بالدلالات والمعاني التي تشع من هذه البنية، طمعا في تحديد المكونات الأساسية للظواهر ثم معرفة شبكة العلاقات التي تنبثق منها وإليها.

- كما نقل صالح هويدي في مصنفه (النقد الأدبي الحديث) أن ميشال فوكو يرى " أن البنيوية هي من أجل الآخرين، أي من أجل أولئك الذين يرون الغابة ولا يرون الأشجار" (صالح هويدي، النقد الأدبي الحديث، ص114)، ساعية لإلغاء الفرادة المتسلطة ومنح قدرة أكبر لمعاينة الأدب أو الشعر وفهم المكونات والعلاقات القائمة بين الظواهر.

التوصيات:

- استشراف التوجه النقدي الحديث بما يخدم الحركة الأدبية والنقدية وتطورها في إطار القواسم المشتركة بين الإرث النقدي الأدبي العربي والنقد الجديد والبنيوية التي مثلت في مضمارها جهدا بدأه عبد القاهر الجرجاني في نظمه واقتطعه دي سو سير في بنيويته وأوتي أكله ثمارا قطفها نقادنا العرب واتقنوا تطبيقها وأحكموا وصفها بصورة لافتة كالمسدي ووغليسي وغيرهما.
- تسليط الضوء عند اختيار النصوص وتحليلها وفق معايير هذا المنهج وإخضاعها لميدان المفاضلة مع باقي المناهج الحداثية وصولا إلى ذروة الإبداع النقدي والفني الأدبيين.
- مواكبة الحداثة النقدية حتى يبلغ متتبعوا البنيوية إلى المضي في القراءة التحليلية إلى منبع تتكشف من خلاله أبنية الأعمال الأدبية وفق النسق اللغوي بإطاره البنيوي، مع عدم إغفال ملامح الإبداع ومتطلبات الجمال الفني تنميةً لقدرات وإمكانيات هذا التوجه النقدي خدمة للميدان الأدبي النقدي، ورفدا للمكتبة العربية بمصنفات تتبنى الحداثة في ثوبها الفضفاض توسيعا للمدارك وتشذيبا للرغبات.

ثبت المصادر والمراجع

* البنيوية: فلسفة موت الإنسان، روجيه غارودي، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1985م.

* البنيوية في الأدب، روبرت شولز، ترجمة: حنا عبود، منشورات اتحاد كتاب العرب، ط7، 1977م.

* لسان العرب، لابن منظور، مج 9، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

* مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، 1990م.

* مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، دار ميريت للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2002م.

* نظرية الأدب في القرن العشرين، ك. م. نيوتن، ترجمة: عيسى الكاعوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1988م

* نظريات نقدية وتطبيقاتها، أحمد رحماني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2004م.

* النقد الأدبي الحديث، صالح هويدي، منشورات جامعة السابع من أبريل، ليبيا.

* نقلا عن محاضرة ألقاها علينا الدكتور عبد الحميد الهَرَّامَة في مرحلة الدكتوراه بعنوان: قضايا النقد الأدبي الحديث، للعام الجامعي 2013 ــ 2014م بجامعة طرابلس، القاطع (ب)، ليبيا.